الفنون العربية الإسلامية

المحاضرة الثانية

التحف المعدنية

الثالث إسلامي

م.م علي احسان عبد علي

عــرف المصريون المعادن المختلفة من العصور القديمة، فقد كــان الــنحاس والذهــب والحديد والرصاص والفضة والقصدير من المعــادن الهامة التي استخدمها المصريون منذ قرون طويلة . وورث المصــريون الأقــباط صــناعة المعادن ، فلما وفد العرب إلي مصر وجدوا أن تصنيع المعادن حرفة أصيلة ومستقرة .

وفــي العصــور الإسلامية توفر في مصر عديد من المعادن ســواء أكانت مستخرجةً من مناجمها أم مستوردةً من الخارج . فكان الذهب يستخرج من الصحراء الشرقية في المنطقة الممتدة من جنوب طــريق قــنا- القصير إلي حدود السودان، ومن منطقة العلاقي . كما أســفرت أعمــال التعدين عن استخراج النحاس والرصاص، والحديد مشــبه جزيرة سيناء، وبعض الأحجار الكريمة من صعيد مصر مثل الزمــرد والزبــرجد والــياقوت واللؤلــؤ . كذلك اشتهرت مصر في العصور الإسلامية باستخراج الشب من الواحات الخارجة بالقرب من أســوان، والــنطرون مــن البحيرة وشرق الدلتا . وهما من المعادن المستخدمة في حرفة الصباغة وصناعة الألوان .

ويشــير المؤرخون إلي أن بعض المناطق في العالم الإسلامي كانت تتميز دون غيرها بتوفر المعادن ؛ مما كان يدفع باقي الولايات الإســلامية إلــي الاستيراد منها ، لا سيما في ظل اتساع حدود الدولة الإسلامية وسهولة الاتصال بين أنحائها . ومن هذه المناطق القيروان

التي اشتهرت بمعادن الفضة والحديد والنحاس والرصاص ، وجزيرة صقلية التي اشتهرت بالذهب والفضة والنحاس والرصاص والزئبق . وبـــلاد المغـــرب التي توفر فيها الحديد والنحاس والفضة والرصاص والقصدير، واليمن التي عرفت بالحديد والرصاص والبلور ، أما بلاد الشام فكان يستورد منها الرصاص الجيد .كذلك كان يستورد من بلاد فارس والهند الحديد والنحاس والفضة .

خلاصة القول أن العالم الإسلامي عامةً ، ومصر خاصةً شهد توفـــر أنـــواع عديدة من المعادن ؛ مما ساهم في تصنيع المعادن في العصور الإسلامية . وقبل أن نتحدث عن السمات الفنية المميزة لهذه الصناعة لأبد من الإشارة أولاً إلي طرق التصنيع .

طرق التصنيع

كانـــت طـــرق تصـــنيع المعادن مختلفة ومعقدة مما يدل علي تمـــرس العـــرب فـــي هذه الحرفة ، وفهم الصناع لخواص المعادن والفلـــزات ، وتـــنوع الأدوات المستخدمة في التصنيع. والملاحظ أن طـــرق التصنيع لم تختلف من فترة لأخرى أو من مكان لآخر، وإنما كـــان الاخـــتلاف فـــي أنواع الزخارف وأسلوبها ، وفي الشكل العام للأواني والمنتجات . ومن أقدم طرق التصنيع وابسطها طريقة الضغط أو الدق التي تتم علي مراحل . تبدأ أولا بقطع الصفائح المعدنية حسب شـــكل الآنـــية المراد صنعها . ثم توضع الصفيحة علي قالب خشبي حفرت عليه الزخارف حفراً بارزاً أو غائراً حسب الحاجة . ثم يدق أو

يضـــغط ضـــغطاً شـــديداً علـــي الصفيحة حتي تأخذ شكل الزخارف المحفـــورة علي القالب الخشبي . بعد ذلك ترفع الصفيحة ويحز حول الزخارف لكي تبدو واضحة ، كما تحز الزخارف الدقيقة التي يصعب حفـــرها في القالب الخشبي . وبعد ذلك تملأ الشقوق الناتجة عن الحز بمادة سوداء تعرف بالنيلو حتي تحدد معالم الزخارف . والمعادن التي تزخرف بطريقة الضغط أو الدق تكون عادة لينة طيعة يسهل تشكيلها علـــي القالـــب مثل الذهب والفضة .أما المعادن الصلبة فكانت تصنع بطـــريقة الحفر . وفي هذه الطريقة تشكل الصفائح تشكيلاً أولياً حسب شكل الآنية المراد صنعها، ثم توضع علي مادة مثل القار لتثبيتها . ثم يتم حفر الزخارف علي الآنية مباشرة . وكان الحديد والبرونز بشكلان بهذه الطريقة ؛ فكان الحديد والصلب يصنع منهما الأواني الشعبية أما البرونز فتصنع منه الأواني التي تصنع لطبقة الخاصة وتتميز بالحفر العميق .

وهناك طريقة أخرى لتصنيع المعادن وهي طريقة التكفيت التي عرفها الإيرانيون منذ العصر الساساني ، ثم نقلها السلاجقة ثم وصلت إلـــي مصـــر وأنحاء العالم الإسلامي . والتكفيت كلمة فارسية بمعني الـــدق، ويقصـــد به تطعيم المعدن الأصلي للإناء أو القطعة المعدنية بمعـــدن آخـــر أغلي منه ومختلف عنه في اللون ، مما يعطي جمالاً للـــزخارف . وتـــتلخص طريقة الصناعة في حفر الزخارف القطعة المعدنية حفراً عميقاً وعريضاً يسمح بملئ هذه الحفر بمعدن آخر أغلي

ومختلف في اللون مثل الذهب أو الفضة أو النحاس الأصفر . ويثبت هذا المعدن في الزخارف من الجوانب .

وهـناك طـريقة أخـرى تشبه طريقة التكفيت وهي الترصيع بالميـنا . والمينا هي مادة زجاجية تخلط بأكاسيد معدنية تعطي ألوان متعددة تختلف باختلاف الأكسيد المستخدم .وللترصيع بالمينا طريقتان. الاولي يتم فيها حفر الزخارف علي القطعة المعدنية ، ثم تصب المينا فـي حواجـز معدنية دقيقة تلتصق علي المعدن في مكان الزخارف بحيث تبدو القطعة المعدنية في النهاية كأنها مرصعة بالأحجار الكريمة . والطـريقة الثانـية يـتم فيها حفر الزخارف ، ثم توضع المينا في تجاويف الزخارف وتوضع القطعة في النار حتي تثبت المينا في الحفر كما تكتسب بريقاً زجاجياً . وهذه الطريقة كانت أكثر انتشارً في العالم الإسلامي .

تطور تصنيع المعادن

كانـت لإيـران شهرة واسعة في تصنيع المعادن في العصر الساسـاني ؛ وذلـك لوفـرة مناجم الفضة والنحاس والقصدير بها . وعندما قامت الدولة الإسلامية وبدأت تتوسع وتفتح الأمصار في الشام والعـراق وإيـران وإفريقـيا ، اتبع العرب سياسة حميدة وهي ترك الحرف والصناعات في أيدي أهلها لا يتدخلون فيها . ونتيجة لذلك فقد ظلت صناعـة المعادن إيـران والشـام في أوائل العصـر الإسلامي

محتفظـــة بنفس الطـــرق والأساليب التي كانت متبعـــة في العصـــر الساساني ، مع ظهور بعض الكتابات العربية أحياناً .

وتظهر التأثيرات الساسانية في الزخارف الممثلة علي المعادن بوضـــوح كمـــا في الدوائر المتماسة أو المنعزلة ، ورسم الحيوانات المـــتدابرة أو المتقابلة وبينهما شجرة الحياة أو شجرة الخلد ، وكثرة الـــزخارف النباتـــية والحيوانـــية والآدمية ، بالإضافة إلي الحيوانات المجنحة والحيوانات الخرافية .

وقد ظلت التأثيرات الساسانية واضحة في القطع المعدنية التي أنتجها الفن الإسلامي في الأربعة قرون الأولي بعد الهجرة ، لذا لم يجد العلمـــاء بدنـــاً مـــن أن يطلقوا علي فن هذه الفترة اسم الفن الساساني المتأخر .

تمثل إنتاج هذه الفترة في بعض الأطباق المصنوعة من الفضة وتزينها مناظر صيد وموضوعات آدمية ذات طابع ساساني ، وبعض الأوانـــي الفضـــية التـــي تزينها رسوم طيور وحيوانات مثل حيوان الســـمنور الخرافي الذي يجمع في شكله بين الطائر والأسد والكلب . كذلـــك ينســـب إلي هذه الفترة عدد من الاباريق يزين بعضها رسوم الطـــيور والعقـــبان والجامات المتشابكة ، وتظهر علي بعضها الآخر كتابات كوفية تشير إلي نسبتها إلي القرن ٢ هـــ / ١٠ م . كما ينسب لهـــذه الفـــترة عـــدد مـــن الأباريق البرونزية لها بدن كروي ورقبة أسطوانية طويلة وصنبور علي شكل طائر . والمعروفـــ من هذا النوع ســـتة إباريق : أحدها في متحف المتروبوليتان ، وآخر في مجموعة

هراري ، وإبريق ثالث في متحف الفن الإسلامي بالقاهرة ، إما الثلاثة الأخرى ففي متحف الهرميتاج .

ومـــن القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي بدأت نظهـــر الشخصـــية الإسلامية المستقلة في الفن بعد أن ظلت صناعة المعادن عالة علي الفن الساساني لمدة أربعة قرون . وقد ظهرت هذه الشخصـــية الإسلامية في الفن في ظل ***الدولة السلجوقية*** التي تميزت معادنهـــا بطـــابع خـــاص وشخصية منفردة . والسلاجقة قبائل تركية هاجـــرت من أقصي تركستان أسسوا دولة عاصمتها نيسابور في سنة ٤٢٩هـــ / ١٠٣٧م تحـــت قيادة طغرل بك ، ووصل السلاجقة إلي بغـــداد واعترف بهم الخليفة العباسي ثم توسعت دولتهم حتي وصلت إلـــي حدود الروم شمالاً والبحر المتوسط غرباً والهند والصين شرقاً . وامـــتد العصـــر السلجوقي من القرن الخامس إلي السابع الهجرى / الحادي عشر إلي الثالث عشر الميلادي .

وكانـــت الـــتحف المعدنـــية أكثر الفنون وضوحاً في العصر الســـلجوقي والتي سبقت الإشارة إلي أن ملامحها الإسلامية لم تظهر إلا في عهدهم . وتنوعت المنتجات المعدنية تنوعاً كبيراً فمنها المرايا والأبـــاريق والأهـــوان والشمعدانات والمصابيح والمباخر والصناديق والصواني والطسوت والسلطانيات وغيرها .

وتمـــيز الفـــن الســـلجوقي عامةً بعدد من السمات فمن حيث الخامـــات المستخدمة شاع استخدام الأواني الذهبية والفضية النحاسية وأيضـــا البرونزية . ومن حيث موضوعات الزخارف أتضح الانتقال